

عازف الكمان على الجمجمة ...

محمود درويش

كنا نحملها حرفا حرفا ، نقطة نقطة ، ونسافر من جهات الدنيا الاربعة الى برلين . هناك اكتمل الاسم ، فأطلقناه كالحمام والرصاص .. صرخة ردها نصف مليون حنجرة : فلسطين تحيا ..

وفي الطريق من الشرق الاوسط الى برلين ، كنا نقرا مرثية الكراهية القبيحة التي اعلنها المغزاة عن موت فلسطين « التي لم تعد موجودة » . كانوا يترجمونها حرفا حرفا ونقطة نقطة .

برلين ! ما أقسى الزمن ، وما أشد طاعته حين تكون الايدي قوية وواعية . لقد أتعبتك القصائد التي تروي معجزة النهوض من بين الانقاض . ولكن ينبغي أن تفهمينا ، لاننا نستخرج اسمنا من بين الانقاض .

كان ياسر عرفات يستدرج ذكرياته في ذلك المساء الالماني الجميل : كم كبرنا ! . قبل أكثر من عشر سنوات كنا نتسلل الى مثل هذه المناسبة في وارسو . كنا ثلاثة أو أربعة شبان نكتب اسم فلسطين على يافطة صغيرة ، فلا يعرفنا أحد ولا يقبلنا أحد . كنا غرياء عن العالم . وكان الوفد الاسرائيلي كبيرا ، وكان العلم الاسرائيلي كبيرا .

وماذا في برلين اليوم ؟ . في مهرجان الشباب العالمي العاشر ، عرف الضمير الانساني العالمي المشترك في المهرجان أن فلسطين تلاحقه بقسوة المثل أمام امتحان القيم . وأن قضية الحرية لا ينبغي أن تتحول الى وجهة نظر قابلة للحياة عند حدود فلسطين . فكان العالم المحتشد في برلين من قارات الارض كلها يهتف لفلسطين هتاف المستقبل والحاضر والماضي المشوب بالاحساس بالذنب والاثم أحيانا . ليس الشرق شرقا والغرب غربا الى هذا الحد . وأن عقدة الذنب التي لاحقت الكثيرين من الاوربيين تجاه المصير اليهودي أخذت في التحول التدريجي ، عند الشباب خاصة ، تجاه المصير الفلسطيني الذي تقدم عقوبة مجانية لجريمة لم يرتكبها العرب . لقد تهادى الاسرائيليون في الابتزاز ، وناجروا بكارثة آباءهم متاجرة دفعت الجيل الاوروبي الجديد الى إعادة النظر بذنب لم يرتكبه . أن جيل الشباب اليساري والديموقراطي الذي هز الغرب بمظاهرات التأييد لثورة الشعب الفيتنامي هو نفسه الذي يلتف اليوم حول حركة الشعب الفلسطيني التي تمثل جوهر قضايا الحرية في هذه المرحلة من العصر ، بكل ما تعنيه من مقاومة للأمبريالية العالمية وامتحان لجدارة الانتماء الى البشرية .

لم يدهشنا أن يتجاهل المغزاة الاسرائيليون هذا المعنى وهم ينظرون ، بحزن ، الى مهرجان برلين . لقد استسهل وزير خارجيتهم المتخذلق تفسير هذه الظاهرة الجديدة فنسبها الى « المعادة الجديدة لليهود » . ولا يبدو أن الاسرائيليين سيكتفون عن مطاردة الضمير الاوربي بذكريات ما حدث لليهود . ولا يبدو أنهم سيتوقفون عن اهانة